المجتمع ، فهل يمكن عزل فكر الإنسان و خياله عن الواقع اجتماعي الذي يعيش فيه ؟

إن العلاقة بين الأدب والمجتمع علاقة جذرية متماسكة، ولا يتولد فن عموما ولا أدب خصوصا إلا في الجماعة و من أجل الجماعة ، فلا يمكن أن نقول : إن فلانا ينتج فنا ليتمتع به وحده أو يقول شعـرا ليسمعه به وحده، ثم من أين يستمد الفنان أو الشاعر انفعاله المبدع ؟

أليس من تجاربه في مجتمعه ؟ وهل يقتبس صّوره وقيّمه إلا من الثقافة التي تلقاها ؟ كما أنه لا يمكن أن يشعـر براحة و رضى إلا عندما يجد من يقرأ شعـره ويتمتع بـه ، ويشاركه انفعالاته وأحاسيسه .

إننا مع هذا لا ننكر أنّ لكل شاعرا طابعا خاصا يميّز شعـره عن سواه، وأن لشخصيـة الأديب وحياته النفسية دورا بارزا في إنتاجه الأدبي، ولكن الأدباء والفنانين هم أيضا أبناء بيئتهم منها يستمدون تجاربهم ، وفيها يشع إنتاجهم ويتدفق إبداعهم، فلا فن ولا أدب إلا في الجماعة ومن أجل الجماعة، ومن ثمة لا يمكن الغوص في أعماق الأدب إلا داخل الإطار الاجتماعي الذي منه ينطلق الأدب وإليه يعود، وهذا موضوع علم الاجتماع الأدبي على الإجمال.

إنّ النظر في العمل الأدبي على أنّه يعكس الواقع الاجتماعي أو الحياة الاجتماعية بكل ما تحمّله من تناقضات وآمال و ألام وطموحات ورغبات تعـود إلى العصور القديمة جدا ، ويمكننا القول إنها ترجع إلى حكماء اليونان القدماء الذين عبروا عن هذه العلاقة في خطاباتهم الفلسفية و الأدبية .

وإذا أردنا الرجوع إلى الوراء بدا لنا أنّ الفيلسوف اليوناني أفلاطون أول ناقد اهتـم بالناحية الاجتماعية باعتبارها معيارا لاستحسان الشعر ، فقد طـرد الشعراء من جمهوريته الفضلى لأنهم يفسدون الأخلاق ، وأما الذين ينظمون الأشعار لإشعال نار الحماسة في نفوس المحاربين فلهم كلّ التقدير. (1)

هكذا نجد جذور علم اجتماع الأدب في نظرية المحاكاة التي طرحها وطوّرها أرسطو ، فهي تلمح إلى التفاعل و الترابط بين الأدب والمجتمع بتعبير المحاكاة، و رؤيته إلى الفن على أنه محاكاة للمحاكاةاستنادا إلى فلسفته المثالية التي ترى أن الوعي أسبق في الوجود من المادة ، لذلك يرى الكون مقسم إلى عالم مثالي وعالم طبيعي محسوس، وهذا الأخير ما هو إلا صورة مشوهة ومزيفة عن عالم المثل الأول، إذن العالم الطبيعي محاكاة للعالم المثالي . (2)

فالفنان أو الشاعر عندما يصف شجرة مثلا فهو يحاكي العالم المحسوس الذي أصلا محاكاة للعالم المثالي، وما انحصرت نظرية المحاكاة على ما قاله أفلاطون ، وجاء بعده أرسطو، واستخدم المصطلح ذاته الذي استخدمه أفلاطون ، لكنه منحه مفهوما جديدا عما قدّمه أفلاطون، وأكد أنّ الشاعر لا يحاكي ما هو كائن ، و إنّما يحاكي ما يمكن أن يكون، فإذا حاول الفنان أن يرسم منظرا طبيعيا ينبغي ألا يتقيد بما يتضمنه ذلك المنظر ، بل عليه أن يرسمه أجمل ما يكون . [3]إذن الشعر من وجهة نظر أرسطو مثالي يتمم ما في الطبيعة من نقص، كما أشارت نظرية المحاكاة بطريقة أو بأخرى إلى الوظيفة الاجتماعية للأدب فأفلاطون قد طرد الشعراء من جمهوريته خوفا من تأثيرهم السلبي على المجتمع .

ولكن من المحاولات الرائدة التي حاولت ربط الأدب بالواقع الاجتماعي تعود إلى القرن18 للميلاد وهي محاولة المفكر الايطالي جيامبا تيستا فيكو(1668-1744) في كتابه "مبادئ العلم الجديد" الصادر عام 1725، وفيه ربط بين الأنواع الأدبية والواقع الاجتماعي، فقام بربط ملاحم هوميروس بالمجتمعات العشائرية، وقال بأنّ الدراما نشأت مع ظهور المدينة ،أين يمكن أن تتجمع جمهور المشاهدين، أما الرواية فقد ظهرت مع ظهور المطبعة والورق وانتشار التعليم ...[4]وفيما يخص نظرة فيكو في الربط بينالأنواع الأدبية والواقع الاجتماعي فانه يأخذ بعنصر الزمن من خلال اهتمامه بالمراحل الحضارية كحديثة عن ظهور الملاحم في المجتمعات العشائرية ثم ظهور الرواية في مجتمع المدينة .

هذا ما يؤكد أنّ النظرة الاجتماعية للأدب ليست وليدة القرن الحالي أو الماضي، وانما تعود إلى عهد قديم ، فقد وعى الفلاسفة والنقاد ضرورة البعد الاجتماعي للأدب ، غير أنهم لم يصلوا إلى بلورة نظرية نقدية متكاملة قائمة على أسس منهجية وأصول معرفية إلا في القرن 19 للميلاد على أيدي جملة من النقاد والباحثين .

1- مجهودات مدام دوستال (1766-1817):

يتفق معظم الباحثين على أنّ الإرهاصات الأولى للمنهج الاجتماعي في دراسة الأدب ونقده بدأت منهجيا منذ أن أصدرت الكاتبة الروائية الفرنسية مدام دوستال كتابها المعنون ب "الأدب في علاقته بالأنظمة الاجتماعية " الصادر عام 1800 م، تحدثت فيه عن دور عامل الهوية القومية وعلاقته بالوسط الاجتماعي، وأثرهما في الإبداع والذوق الفني.

يعد هذا الكتاب أول محاولة لجمع مفهومي الأدب و المجتمع في دراسة منهجية واحدة ، وفيه أكدت الناقدة " أننا لا نستطيع فهم الأثر الأدبي وتذوقه تذوقا حقيقيا في معزل عن المعرفة بالظروف الاجتماعية التي أدت إلى إبداعه وظهوره" (5) وإذا كان فيكو قد اهتم بعنصر الزمان من خلال اهتمامه بالمراحل الحضارية، فإن مدام دوستال قد تقدمت خطوة إلى الأمام في مضمار الربط بين الأدب والواقع الاجتماعي، حيث ترى أنّ كل عمل أدبي يتغلغل في بيئة اجتماعية و جغرافية ما، كما اهتمت بالبحث في مدى تأثير الدين والعادات والقوانين في الأدب ومدى تأثير هذا الأخير فيها (6)، فالأدب في رأيها " يتغير بتغيّر المجتمع ، ويطّرد تطوره مع تزايد القدر الذي يحظى به المجتمع من الحريات الفردية العامة، ودليلها على ذلك أنّ الأدب الفرنسي مثلا، اكره في عصر ما قبل الثورة على الاتجاه نحو الهجاء والتعبير بمرارة، فكأنّ أفق التاريخ كان أمامه مسدودا خلافا لما بعد الثورة، فقد تغير هذا الأدب تغيرا كبيرا نتيجة التغيير الاجتماعي، وزيادة نصيب الأفراد من الحرية الشخصية " (7)، وبما أنّهذه الحرية الجديدة لم تكن فرنسية فحسب، وإنما اتسعت لتكون أوروبية، فقد شمل التغيير الأدب الأوروبي كلّه بما في ذلك الأدب الانجليزي والأدب الألماني.

إذن تلخصت مجهودات مدام دوستال في رؤيتها للأدب على أنه يتغير بتغيّر المجتمعات، ويتبدل بتبدلها، ويتطور حسب تطور الأوضاع الاجتماعية، ومن هنا رأت أنّه أصبح من الضروري بعد قيام الثورة الفرنسية (1789) ظهور أدب جديد يعبّر عن مجتمع ما بعد الثورة، ويختلف عما كان عليه قبل الثورة ، وصار لزاما على النقد أن يحوّل سؤاله من "كيف يكتب الأدباء" إلى "عن ماذا يكتبون" فأرادت من هذه الفكرة أن توجه النقد إلى مسار جديد يهتم بالموضوعات التي تناولها الإبداع أكثر من الاهتمام بفنون الكتابة والبلاغة التي احتلت مساحة كبيرة من كتب النقد القديم .

وبالرغم من هذه المجهودات القيّمة لمدام دوستالفي تاريخ المنهج الاجتماعي للأدب، إلا أنّه قد خطا خطوة أخرى إلى الأمام مع الفيلسوف والناقد هيبوليت تين .

2- هيبوليت تين و الاتجاه الاجتماعي (1828-1893):

كان لابّد من الانتظار أكثر من نصف قرن حتى تظهر دراسة أخرى أكثر منهجية وأكثر ضبطا من الدراسة الأولى، وهي التي قدمها الناقد الفرنسيتين في تفسيره للأدب، وقد تأثر كثيرا بتطورات العلوم المختلفة، فتقدم

بمفهوم النقد الاجتماعي خطـوة الى الأمام، وهي محاولة اخضاع الأدب للنظرية العلمية على غرار ما هو قائم في العلوم الأخرى.

استند تيـن في نظريته الواردة في كتاب "تاريخ الأدب الانجليزي" الصادر 1863م الى اعتبار أنّ الأدب حصيلة عوامل ثلاثة ، استفاد في تحديدها من الدراسات التي سبقته، و خاصة دراسة فيكوو دوستال، فقد أضاف الى عامل الزمن الذي قال به فيكو، والعامل الجغرافي الذي قالت به مـدام دوستال، عاملا ثالثا هو الجنس أو العرق، ليشكل بذلك ثالوثه المعروف "الوسط، الزمن، الجنس " :

2-1-الوسط أو البيئةle Milieu : فالإنسان في بيئته خاضع لأوضاع حتمية هي التي تتحكم بالأدب أو الحياة العقلية للفرد، وبالتالي فالبيئة هي الاطار الطبيعي والاجتماعي الذي يتحرك فيـه الأديب، فهناك دائما ترسبات فطريـة هي نتيجـــة لموروثات فردية أو جماعيـة، جسميـة ومزاجية لها أثرها في تكوين الفرد[8]، اذن هناك ترسبات مكتسبة هي نتيجة للظروف الطبيعية والاجتماعية المحيطة بالكاتب، وهي أيضا لها أثرها في توجيـــه الفرد، وعليه فالعمل الأدبي بلا شك سيتأثر بالعوامل الخارجية المكتسبة .

2-2- الزمـن أو العصـر: الذي أنتـج فيه الأدب، وهو يعني روح العصر أو مكان العمل الأدبي من تاريـــــخ التراث، وربّما يعني به ما عبـــر به شاعـر عـربي قديـم بقولـه " لكل زمان دولة ورجال " ، فالزمن هو هذا الامتداد التاريخي الذي يؤثر على تطور الأدب، فبقدر ما هو مكاني هو زماني أيضا ، و الملاحظ أنّ تين قد نظر الى التاريخ نظرة سكونية أي أنّ الزمن يؤثر سلبا على تطـــور الأدب، اذ بنظر الى النتاج الأدبي الأول على أنّه ابداع حقيقي، وأنّ الذي جاء بعده هو تقليد النتاج الكلاسيكي الأصل، وما عداه فمجرد تقليـــــد.

2-3- العـــــرق أو الجنـــس: والمقصـود بـه الاستعدادات الفطريـة التي تولـــــد مع الانسان ، ويكون لها صداها في تكوينه الجسمي والمزاجي أو أنّه تلك الخصائص القومية والمقصود بها تلك الحوادث الجسام و الدوافع الغريزية والعناصر الوراثية والملامح الجسدية ، والتي تختلف من أمة الى أخرى [9].

إذن كانت هذه الثلاثية المشهورة " الوسط ، الزمن ، العرق " التي اعتمدها تيـن في دراسته للأدب، ورأى أنّه من دون هذه العناصـر لا يمكن فهم العمل الأدبي وتفسيره ونقـده ، ولقد عرفت هذه النظرية نجاحا بالغا طوال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ولعلّ السبب يعود الى الطريقة العلمية التي عرض بها

منهجه، غير أنّه من الملاحظ أنّ تين قد جعل الأدب بمثابة ظاهـــرة من الظواهر الطبيعية يسجل بعض الانفعالات المحددة القابلة للمعالجـة والاختبار، ويمكـن للدارس الأدبي أن يفهم العمـل الأدبي ويفسّـره في ظل هذه الثلاثيـة، ولكن هل الظاهرة الأدبية تسمح بمثل هذا التعميم في القوانين؟ أليس الأدب ظاهـرة فنيـة ؟ أليست الظاهـــرة الفنيّـة عظيمة بقدر قابليتها لتعدد المعاني ولعشرات التأويلات، مما يجعل انخراطها في قانون عام أمرا مستحيلا ؟

إن الظاهرة الأدبية نات طبيعة تخييلية، وهو ما يعني أنّه لا يمكن أن تكون مادة تجريبية تخضع لقوانين عامة ، و تدخل في قوالب جاهزة تقاس عليها جميع النصوص، واذا كانت الظاهرة الطبيعية مادة قابلة للملاحظة والقياس والتعميم، واكتشاف قوانينها ،فإنالظاهرة الأدبيـة تخرج عن ظاهرة التعميم والقياس، لتدخـل دائرة الفردية والتخصيص، فالعلم تعميم و الفن تخصيص ، العلم تجميع والفن تفرد.

ثم إن الدارس أو الناقد الأدبي عندما يدرس أدب أديب معيّن، فهو غالبا لا يهتم اهتماما بالغا بما يشترك فيه ذاك الأديب مع بقية البشر أو مع باقي أدباء عصره ، فهو غالبا ما يدرسه لاكتشاف ما تفرد به هدا الأديب، و ما تميّز به دون سواه .

وهذا ما جعل نظرية تين تنتقد من ناحيتين، أولا من حيث النظرة السكونية للتاريخ الأدبي، وثانيا من حيث جعل الكلاسيكية مثالا تقاس عليه الفنون، كما أنه أهمل أثر الجانب الفردي الخاص بالمبدع. وعلى الرغم مما قدمه الفيلسوف تيـــن إلا أنّ هذه الآراء تعبر عن الالتفات إلى الصلة بين الظاهرة الأدبية والمجتمع ، ولكنها لم تتوصل إلى إدراك علاقة التأثير والتأثـر بيـن الأدب والمجتمع، إلاّ أنّ التطور الحقيقيفي دراسة الأدب اجتماعيا كان مع ظهور الفلسفة الماركسية التي ركزت على الجانب الاقتصادي في توجيه الفن والأدب .

3- الفلسفة الماركسية والاتجاه الاجتماعي :

الماركسية نظرية في الاقتصادوضعها كارل ماركس (1818-1883) بمشاركة فودريكانجلز(1820-1905) في منتصف القرن التاسع عشر، وقد اشتهرت هذه النظرية بالشيوعية، كما أسماها البعض بالتفسير المادي للتاريخ، أما عن نشأة هذه النظرية بتأثيـر نضال طبقـة العمال (البروليتاريا)، حيث ثار العمال في العقدين الرابع والخامس من القرن التاسع عشر في انجلترا وفرنسا وألمانيا.

تدور الفكرة الماركسية حول محور الأساس الاقتصادي للمجتمع (البنية التحتية) الذي يحدد طبيعة الايديولوجيا والمؤسسات والممارسات (كالأدب)التي

تشكل البنية الفوقية لذلك المجتمع، وبما أنّ الأدب بنية فوقية تعكس الواقع الاجتماعي والاقتصادي للبنية التحتية، إذن لابد من وجود علاقة حتمية مباشرة بين القاعدة والبنية الفوقية ، فأيّ تغيّر في قوى الإنتاج المادية، لابّد من أن يحدث تغييرا في العلاقات والنظم الفكرية .

وإذا كان تين قد نظر إلى التاريخ نظرة سكونية، فانّ الماركسية على النقيض من ذلك، فقد نظرت اليه نظرة حركية، وقد قامت أساسا لتفسير حركة التاريخ، والتحولات الاجتماعية التي تحكم المجتمع، والتي تؤدي إلى إحداث أفكار وقيم تعبّر عنذلك التحول، وعلية فالماركسية فلسفة اجتماعية، حملت على عاتقها التفسير الاجتماعي والاقتصادي للتحولات التي عرفتها المجتمعات في محاولة لاستنباط القوانين التي تتحكم في هذه التحولات .

إذن لا ينعزل الأدب عن المجتمع والتاريخ، ولا يكون بناء لغويا مستقلا عن التأثيرات الخارجية. والواقع الاجتماعي في الفلسفة الماركسية ليس خلفية مبهمة ينبثق الأدب منها، إن له شكلا محددا، وهذا الشكل قائم في التاريخ الذي يعتبره الماركسيون سلسلة من الصراعات بين الطبقات الاجتماعية وبين الإنتاج الاقتصادي .

وبعد أن وضحنا المحور الأساسي للفلسفة الماركسية والمتمثل في البنية التحتية للمجتمع وعلاقتها بالبنية الفوقية، نلقي الضوء على الجوهر العام لهذه الفكرة، وذلك بشرح المصطلحين الذين قامت عليهما :

3-1- قاعـــدة الصراع الطبقي :ترى أنّ التحولات الحاصلة عبر التاريخ كان محركها الصراع الطبقي، بمعنى أنّها قد لاحظت واستنتجت من خلال دراستها لتاريخ المجتمعات، أنّها قائمة على صراع طبقي نتيجة تضارب المصالح الاقتصادية والاجتماعية، فكل مجتمع فيه طبقات يؤدي إلى قيام ثورات تسعى للقضاء على النظام الطبقي .

إن هذا الصراع يتجاذب فيه طرفان مستغل و مستغل ، الأول يحاول دائما المحافظة على مصالحه وامتيازاتـــه، والثاني يسعى لكي ينتزع جزءا من حقوقـــه فيحتـدم الصراع بينهما، وعندما يتعادل ميزان القوة يحل نظام اجتماعي واقتصادي جديد يتنازل فيه المستغل عن بعض امتيازاته للمستغل، ولكنه يحمل في طياته تناقضات النظام السابق مما يؤدي الى نشوب الصراع ثانية ،و قيام نظام جديد وهكذا، وانطلاقا من هذه المعطيات تفسر الماركسية حركة التاريخ فحركة

التاريخ لا تسير في خط مستقيم ، بل في خط منكسر، وما يبطئ هذه الحركة هو الصراع الاجتماعي، فهناك طبقة أولى تسعى لإبطاء حركة التاريخ للحفاظ على مصالحها، وهناك طبقة ثانية تسعى لإسراع حركة التاريخ، والقضاء على النظام الطبقي. وبظهور نظام جديد نعتقد أننا قضينا على الصراع، الا أنّه تغيير جزئي يدفع الى نشوب الصراع ثانية، وبالتالي دراسة هذه التحولات التي تصاحب فترة ما تدفع لحركية التاريخ التي تسعى لها الماركسية .

3-2- قاعـــــدة المادية الجدلية : المعروف أنّ مؤرخي الفلسفة ينظرون اليها بنظرتيـن، الأولى يصفونها بالمثالية و هي التي تنظر للوجود المادي على أنّه جاء بعد الوجود الفكري، يعني أنّ الفكر أسبـــق في الوجود من المادة، في حين تؤكد الفلسفة المادية على الاتجاه الأخر و هو أسبقيـة المادة على الفكر، وهي التي تصنعه، ومن هنا صنفت الماركسية ضمن الاتجاه الثاني المادي، والتي ترى أنّ المجتمع مشروط بوسائل انتاجه، فاذا كان تين قد حصر العوامل المؤثرة في الأدب في ثالوثه المعروف، فانّ الماركسية تضيف عاملا رابعا و هو أساليب أو وسائل الانتاج .

انّ المادية الجدلية تقوم على أساس أنّ الأفراد في المجتمع تربطهم علاقات انتاجية، وهذه العلاقات هي ما تشكل البنية الاقتصادية للمجتمع، وهي الأساس الحقيقي الذي تقوم عليه بنية قانونية و سياسية عليا تتوافق معها أشكال محدودة من الوعي الاجتماعي، ويتحكم نمط الانتاج في الحياة المادية بحركة الحياة الاجتماعية والسياسية والعقلية عموما[11]أيأنّ البناء الاقتصادي تحكمه مجموعة من العلاقات الانتاجية.

وفوق هذا البناء نجد بناء أخر هو البناء الفوقي الدي تحكمه علاقات فكرية، وقد صنف الأدب ضمن البناء الفوقي، لأنه جزء من البناء الفكري، وأيّ تغيّر في البناء التحتي يتبعه تغيّر في البناء الفوقي، ومعنى ذلك أنّه كلما تغيّرت الأوضاع الاجتماعية (البناء التحتي) تغيّر البناء الفوقي بما فيه الأدب والفكر .

اذن " فليس البناء العلوي أو الفوقي المكوّن من القانون والفن يتطور على نحو ذاتي بل انّه مرتبط في تطوره بالناحية التاريخية للمجتمع التي تمتد منحنياته على حسب تطور البناء الاقتصادي"[12]. ومن ثم فانّ الأدب حسب المنظـور الماركسي خاضع للتغيّر اذا قامت الثورة و أطاحت بالبنى الأساسية للمجتمع ليتحول الى أدب جديد يتغيّر على طبقة اجتماعية جديدة، وفي ضوء هذه النظرة قد أعاد الماركسيون النظر في أمرين اثنين هما : طبيعة الأدب وغايته .[13]